بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ينكر بعض مؤرخي العلوم أن للمسلمين في العلوم الاجتماعية رؤية إسلامية خاصة موجهة، وهم يبخسون إسهامات علماء المسلمين قدرها على امتداد تاريخنا. وعلى هذا يصبح على الباحثين المسلمين أن يدحضوا ذلك الإنكار، وأن يعدلوا ميزان التقويم المختل، وأن يبرزوا الرؤية الإسلامية الموجهة المتميزة. وهذا ما سوف نصنعه هنا بعون الله تعالى.

ويمكن القول إن إثبات وجود رؤية إسلامية خاصة متميزة هو في ذات الوقت إثبات للأصالة. وتأصيل أي علم هو في الوقت نفسه بيان لإسهام إسلامي في مجال هذا العلم. فالأهداف الثلاثة متداخلة، ومترابطة. وسوف نرى هذه الحقيقة بوضوح في أثناء البحث .

والحق أن بعض الدوائر الغربية تنكر كل حسنة وكل ميزة وكل إسهام للمسلمين في ترقية الحضارة وتقدم العلوم، ناهيك عن أن يكون لهم أصالة وإبداع وريادة فيها.

يقول «بول فندلي» عضو الكونجرس الأمريكي لمدة عشرين عاماً: إن بداية تعرفه على الإسلام كانت سيئة «ذلك أنني ضُلِّلت بشأن المسلمين والدين الإسلامي عندما كنت أدرس في مدرسة الأحد الأرثوذكسية في مدينة «جاكسونفيل» في ولاية «إلينوي»، واستقر ذلك التضليل في ذهني حتى بلغتُ خريف العمر». ويقول: "قالت لنا معلمتنا في تعريفها للمسلمين: إن شعباً أميًّا وبدائيًّا وميالاً للعنف، يعيش في مناطق صحراوية في الأراضي المقدسة، ويعبد «إلهاً غريباً»، وما زلتُ أذكر من طفولتي المبكرة، أنها كانت تسميهم «محمديين» وتواظب على تكرار قولها «إنهم

ليسوا مثلنا" . «وكنا فى أثناء حديثها نلهو فى صندوق رَمْلٍ كبير، نغرس فى مواضع مختلفة منه نماذج مصغرة للنخيل والخيام والبدو». ويقول: «وانغرست تعليقاتها فى ذاكرتى، وظللت معظم حياتى أحمل صورة عن "المحمديين" الغرباء الجهلة الذين يضمرون الأذى للآخرين»[1].

وإنكار كل فضل للمسلمين تقليد غربى قديم. ولقد وعظ البابا «أوربان» الثانى مريديه فى «كليرمونت» فى فرنسا سنة ١٠٩٥م وحرضهم ضد المسلمين فقال: إن القدس واقعة فى أيدى الأشرار. والقدس يحكمها شعب (عربى مسلم) لا رب له[2]!

ويقرر بعض علماء الاجتماع الغربيين أن مؤسسًا علم الاجتماع هما أفلاطون وأرسطو؛ ويقرر آخرون أنه «كارل ماركس» (١٨١٨-١٨٨٣م)، ويغفلون الدور الريادى الأصيل لعبد الرحمن بن خلدون لكن آخرين يعطونه حقه من التقدير كاملاً.

وفى مجال علم الخدمة الاجتماعية ضلّلت المصطلحات الحديثة كثيراً من الدارسين فلم يبلوروا النظرية الاجتماعية الإسلامية، أو أنماط العمل الاجتماعى فى مجالات الخدمة الاجتماعية. وسنرى أن الإسلام أرسى الخدمة الاجتماعية على أصول عامة وطيدة، وفَصَّلت الشريعة القول فى أنماط العمل الاجتماعى وشروطه وآدابه، وضمان تمويله واستمراره.

فكان بحث التأصيل الإسلامى لهذين العلمين واجباً علميا وإسلاميًّا.

وفى مجال التاريخ وجدنا الرؤية الإسلامية الأصيلة سائدة فى أعمال المؤرخين الكبار، ووجدنا الأصالة الإسلامية ظاهرة، وبرزت لنا إسهامات المؤرخين الذين اخترناهم كنماذج فى هذا البحث، دون أدنى تعسف أو تعصب.

وفى مجال الجغرافيا وجدنا المعارف الجغرافية ضاربة بجذورها فى أعماق كتابنا العزيز، ووجدنا الآيات العديدة تحرِّض على الارتحال فى الأرض والبحث والنظر فى ظواهرها ووجدنا الرؤية الإسلامية سائدة ومحترمة إلا فى حالات قليلة.

---

(١) انظر كتابه: لا صمت بعد اليوم؛ الترجمة العربية نشرت في جريدة الحياة الدولية، ٢/٨/٢٠٠١م.

(٢) وليام (كبير أساقفة صور)؛ تاريخ الحروب الصليبية؛ ترجمة د. سهيل زكار؛ نشر دار الفكر؛ ط ١ سنة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م؛ جـ١ ص ٤٣٥-٤٣٧ .

والأصالة تبرزها المقارنات بين الينابيع الأولى التى يتدفَّق منها العلم، وبها ومنها سبقت أمة غيرها فى مجاله. وهذا يقود الباحث عن الإبداع إلى معالجة موضوعات التأثير والتأثر، والفضل، ومَنْ نقل عن مَنْ، ومَنْ أفاد مَنْ، ومَنْ استفاد من مَن، ومَن اعتمد على الاستيراد العلمى على امتداد القرون.

ولابد من التمييز بين الاعتماد الدائم على علوم الآخرين، وبين الاقتباس الواعى الذى لا يلبث أن يختلط بإبداعات المبدعين، وبذلك تتشكل علوم جديدة، بريئة من الخرافات التى كانت لصيقة بالاقتباسات الأولى، ثم تنضج، وتتوطد فى البيئة العلمية الجديدة الخصيبة.

وهاهنا مزالق خطرة. فالمؤرخ العلمى قد تأسره نزعة النقد فإذا به يُسقط كل عالم عن مكانته، بحجة النقل عن السابقين. والحق أن الإبداع والسبق العلمى لا يتأتى من فراغ، ولا يبدأ من الصفر، سواءً على مستوى الأمم أو الأفراد. وقد استفادت الأمم بعضها من بعض، وتتلمذ كل عالم على أستاذ، ومع ذلك اعترف النقاد والمؤرخون الكبار لكل أمة بما أسهمت به، ولكل عالم بإبداعه.

وفى الثقافة الإسلامية يواجه الباحث هذه المزالق حين يؤرخ للعلوم الإسلامية، وقد تضلله تلك النزعة الخادعة عند كل منعطف، بسبب الصلات الوثيقة بين الأمة المسلمة والأمم الأخرى، من الفرس والهنود واليونان والرومان، وبسبب اختلاط المسلمين بغيرهم، ودخول الملايين من كل الأمم القديمة فى الإسلام، بحيث يقع الخلاف حول نسب الشريف الإدريسى - مثلاً - فيزعم بعضهم أنه ليس شرقيًّا ولا قرطبيًّا ولا أندلسيًّا، بل هو غربى، لأنه لبَّى دعوة «رجار» ملك صقلية للعمل لحسابه!

فالتأصيل الإسلامى، وإبراز الرؤية الإسلامية، وتوضيح إسهامات علماء المسلمين فى هذه العلوم الأربعة يتطلب الرجوع إلى الأصول القديمة المعتبرة فيها. ولذلك حرصت على الاستناد أساساً إلى أمهات المراجع القديمة فى علوم التاريخ والجغرافيا، والاجتماع، تلك التى ورثتها أمتنا عن الرواد الكبار. ففى تلك الأصول وحدها يجد الباحث عمق الأصالة، وعظمة الإسهامات، ووضوح الرؤية الإسلامية.

اما علم الخدمة الاجتماعية فله وضْع خاص. فعناصره الأصيلة مبعثرة فى ثنايا المصادر الإسلامية، ولم تجد من يهتم بضمها بعضها إلى بعض ليشكل منها علماً مستقلاً.

وفى مجال علم الاجتماع وجدنا ابن خلدون -الرائد الاجتماعى الكبير- معزولا عن ثقافته الإسلامية التى ألهمت عبقريته، ومهدت له السبيل للصعود إلى قمة الريادة فى مجال علم الاجتماع الحديث ومن ثم افتقدنا التأصيل الإسلامى لهذا العلم عنده وعند المسلمين عامة.

البحث عن الحقيقة:

وفى هذه المقدمة العامة من المفيد أن نحدد الرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية، ذلك أنها لا تخص علماً واحداً من العلوم الأربعة موضوع البحث، فيكون مكانها ضمنه. كلا، إنها رؤية عامة لكل علم.

إن الإسلام هو دين الحق. وقد ورد لفظ "الحق" فى القرآن ٢٢٧ مرة. ومجىء الإسلام وُصف بانه مجىء الحق؛ قال تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١] والحق اسم من أسماء الله تعالى: فهو جل شأنه يقول: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [طه: ١١٤] والحق وصف يطلق على الإسلام فى قوله تعالى ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٨] وجميع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بالحق، لقوله تعالى ﴿**لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

فمن البديهى، بناء على هذه الحقائق، أن يكون الحق هو الغاية القصوى المشروعة إسلاميًا لكل العلوم الاجتماعية. وبعبارة أخرى: العلم فى الرؤية الإسلامية هو الحق. وتبعاً لهذا كان واجب العلماء المسلمين أن ينشدوا الحق فى كل نشاط علمى يقومون به. والعلوم – فى هذه الرؤية الإسلامية – هى الحقائق. ويجب أن تصمم مناهج البحث فى كل العلوم لكى تؤدى إلى معرفة الحقائق، ونفى الأباطيل.

ففى علم التاريخ يجب على المؤرخ المسلم أن يصطنع ادق المناهج التى تعينه على معرفة الواقعة التاريخية، بصرف النظر عن عواطفه الدينية والقومية، وسواء كانت هزيمة أو نصراً، عاراً او فخراً. وهذا هو ما فعله المؤرخون المسلمون، وهذا هو ما حمل ابن خلدون على اصطناع منهج القرآن الكريم ومناهج علوم الحديث، فى فحص أخبار التاريخ بمعيار السنن الإلهية الحاكمة للظواهر الاجتماعية.

وفى مجال الجغرافيا كانت غاية الجغرافيين المسلمين معرفة الحقائق عن الكرة الأرضية، وأقسامها، ومكان كل قسم وحدوده، وصفات أهله، ونشاطهم، ومناخ كل بلد وأنهاره وجباله وزروعه. ولذلك ارتحلوا فى فجاج الأرض واحتملوا عذابات الرحلة والسفر، وأخطارهما، وصنعوا الآلات والأجهزة التى تعينهم على معرفة المكان على حقيقته.

وفى مجال علم الاجتماع، قَدَّم القرآن الكريم المنهج العلمى لدراسة الظواهر الاجتماعية حين ذَكَر السنن الحاكمة لها. وجاء علماء الحديث بمنهج الجرح والتعديل، مع الاستناد إلى السنن أو الحقائق والبدهيات، فاستبعدوا الأحاديث التى تضاد الحقائق، وفحصوا سجل الرواة فحصاً دقيقاً قبل أن يقبلوا رواياتهم بوصفها أحاديث صحيحة. ثم جاء ابن خلدون، واستاء من المؤرخين الذين سبقوه لأنهم قبلوا أخباراً تتناقض مع سُنن الله المطلقة، أو "قواعد العمران" كما سمَّاها.

وفى مجال الخدمة الاجتماعية وجدنا النظرية الاجتماعية تقوم على العدل والإيثار لتأسيس المجتمع المسلم المتكافل، البرىء من الظلم، ومن الجوع، والذى يحفظ لأبناء المجتمع إنسانيتهم وكرامتهم، بما قرره الإسلام لهم من "حقوق" وما فَرض من واجبات. لكن "الحقوق" هنا حقوق دينية وأخلاقية واجتماعية لا معرفية.

ومن المؤسف أننا نحن المسلمين لم نبلور أصول الخدمة الاجتماعية الإسلامية التى وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لكى تتخذ صيغة علمية منظمة، حتى غزتنا الكتابات الأجنبية فى هذا المجال.

العلم مقدمة للعمل:

ومن مميزات الرؤية الإسلامية إلى العلم أنه "وسيلة إلى العمل". وقد قال رسول الله ﷺ: "تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا." وروى أنه عليه السلام: "كان يستعيذ من علم لا ينفع"(١).

فالعلم: "وسيلة من الوسائل، ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعى، وإنما هو وسيلة إلى العمل. وكل ما ورد فى فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به"(٢).

و"صلب العلم" هو العلم القطعي. وأهم خواصه العموم والاطراد؛ والثبوت من غير زوال؛ "وكونه حاكماً لا محكوماً عليه، بمعنى كونه مفيداً لعمل يترتب عليه مما يليق به"(٣).

والعلم القطعى المتصف بالعموم والاطراد والثبوت من غير زوال كان هو الخَلفية الملهمة لابن خلدون فى بحثه عن السُّنن العامة المطردة، التى لا تتغير، والتى تحكم الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى "العمران" أو المجتمع البشرى.

لقد تشبع ابن خلدون من علوم الحديث، ودرَّسها وكتب عنها فى مقدمته ملخصاً يظهر معرفته الدقيقة بها، ولذلك يعسر نفى استفادته منها. والشاطبى الذى اقتبسنا من كتابه هذه الفقرات توفى سنة ٧٩٠هـ، أى أنه كان معاصراً لابن خلدون الذى توفى سنة ٨٠٨هـ، بعد ١٨ سنة من وفاة الشاطبى. والرجلان عاشا فى المغرب والأندلس.

هذه الرؤية الإسلامية المنهجية هى التى مكنت العلماء المسلمين من التوجه شطر العمل والواقع، والسعى لكشف المبادئ الكلية الحاكمة للظواهر الاجتماعية.

---

(١) الشاطبي؛ الموافقات في أصول الأحكام؛ ط. محمد علي صبيح بالقاهرة؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد؛ جـ١ ص ٣٠.
(٢) نفسه؛ ص ٣١.
(٣) نفسه؛ ص ٤٠،٤١.

وكان ابن خلدون ابناً شرعيًّا لثقافة أمته حين نهل من القرآن الكريم واقتبس فكرة السُّنن أو القوانين العامة، من آيات الكتاب العزيز؛ وهذه الحقيقة ماثلة في "المقدمة" في ثلاثة عشر موضعاً أورد فيها قول الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب: ٦٢]

إمكان الخطأ:

وتمتاز الرؤية الإسلامية بتوكيد إمكان الخطأ من أى عالم أو باحث. والرسول ﷺ هو القائل: " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. " والخطأ هنا بمعنى الإثم أو المعصية، وبمعنى عدم إدراك الحق أيضاً. ولهذا وجدنا العالم المسلم، مهما عظمت مكانته، يقول: "لا أدرى" إذا لم يكن يدرى. وبعد أن يفصح العالم المسلم عن رأيه، يقول: "والله أعلم"، وهذا يتضمن الاعتراف بإمكان الخطأ، ومن ثم فلا حرج من معاودة البحث للتثبت أو نفى ما سبق تقريره.

لا مكان للمبالغات:

إن الغاية من هذه الدراسة –كما سبق أن قررت – هى توضيح الرؤية الإسلامية فى هذه العلوم الاجتماعية الأربعة، وإبراز إسهامات العلماء المسلمين، والكشف عن الأصالة فيها.

لكن هذا كله مرهون بالحقائق. فنحن لن نبالغ فى تعظيم الرؤية الإسلامية فوق ما هى عليه من العظمة. ولن نخترع إسهامات لا وجود لها، ولن ندَّع أصالة لا دليل عليها. فهذه هى الضوابط الإسلامية للكلمة المكتوبة والمنطوقة.

وسوف أشير إلى الأخطاء التى وقع فيها علماؤنا العظام دون حرج. وهذا لا يقدح فى أصالتهم ولا يبخسهم حقهم فى التقدير، ولا ينتقص من إسهاماتهم. فهذا هو التقويم النقدى الموضوعى السديد. وهو الذى يكفل احترام القارئ للكاتب، ويحفظ لهذه الدراسة خاصيتها العلمية. وينفى عنها الدعائية والابتذال والتحيز.

تآزر العقل والنقل فى الإسلام:

ولقد تأكد من خلال هذه الدراسة أن تآزر العقل والنقل فى الإسلام هو السر فى

تقدم العلوم عند المسلمين، كما أن تجمُّد العلوم فى أوربا فى العصور الوسطى سببه انغلاق الكنيسة [1]، ووضع الدين المسيحى وعقائده فى تناقض مع نتائج العلم، حتى إنهم أحرقوا "برونو" العالم الإيطالى الذى قال إن هناك عوالم أخرى غير عالمنا هذا. ولا يستطيع الكاتب المسلم وهو يذكر تلك المأساة أن ينسى أن يذكِّر قارئه بأن القرآن الكريم قرر أن ثمة سبع سماوات ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢]، وأشار إلى خَلْق يعبدونه فيها كما يعبده أهل الأرض. فثمة بَوْن شاسع بين الرؤية الإسلامية والرؤية المسيحية لمصادر المعرفة (العقل والنقل) وصلتها. وازدهار البحوث العلمية فى كافة الميادين فى البلاد المسلمة هو نتيجة الاعتقاد بأن العقل لا يعارض الوحى، إلا إذا أخطأ العقل، أو زُيِّف الوحى (النقل). وقد قتَل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الموضوع بحثاً فى كتابه: "درء تعارض العقل والنقل"، وانتهى إلى تآزرهما.

أسأل الله تعالى أن يوفق علماء المسلمين جميعاً إلى الالتزام الصارم بهذه الرؤية الإسلامية العلمية الموضوعية السامية، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

* * *

---

(١) نفيس أحمد؛ جهود المسلمين؛ ص ١٩٧ .